التعريف بالعالم الرّباني الشيخ

عبد الرحمن بن يلّس التلمساني

[1932 – 1983م]

– أحد أعلام التصوف الجزائريين المعاصرين -

أ.نبيل حفّاف
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي وأستعين،

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدّين

هذه صفحات تتضمّن قبسات من حياة عالم من العلماء الجزائريين العاملين الرّبانيين، وعَلَمٍ من أعلام التصوّف المعاصرين، الذين وهبوا حياتهم للعلم والدعوة والإرشاد والإصلاح. فتركوا أثرا حسنا وخلّدوا بصماتهم في سجلّ التاريخ، وهو الشيخ الفاضل عبد الرحمن بن يلّس التلمساني رحمه الله تعالى.

وهذا المقال محاولة في التعريف بهذا الشيخ الصوفي الصالح والعالم الجليل، وإلقاء الضّوء على بعض الجوانب من حياته وشخصيته الفذة والمميّزة، وذلك من باب الوفاء بحق الأسلاف من العلماء والصّالحين، الذين لهم علينا حقّ وفي ذمّتنا دَيْن، والذي يقتضي منّا عدم نسيانهم وإحياء ذكراهم، والتذكير بحسن أثرهم وجميل مآثرهم، حتى ترتبط الأجيال الحاضرة بأمجاد تاريخها وأصالة ماضيها، فتكون خير خلف لخير سلف.

وممّا يؤسف له أنّ هذا الشيخ، وعلى الرّغم من أنّه عاش الفترة الأخيرة من حياته في الجزائر التي عاش فيها مدّة ست عشرة سنة بعد أن هاجر من دمشق التي وُلد ونشأ وتعلّم بها، غير أنّه لم يكتب في التعريف به أحدٌ هنا في الجزائر، في حين أنّنا نجد من عرّف به وكتب له ترجمة مختصرة في بلاد الشّام، حيث له ترجمة مختصرة في كتاب "تاريخ علماء دمشق في القرن الرّابع عشر الهجري" للمؤلّفين محمد الحافظ ونزار أباظة، وفي كتاب "إتمام الأعلام" للمؤلفين د.نزار أباظة ومحمد رياض المالح، وفي كتاب "غرر الشآم في تراجم علماء الشّام من آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم" للدكتور عبد العزيز الخطيب.

وينبغي التنبيه إلى أنّ ما كتبتُه في التعريف بهذا الشيخ، هو مستمَدٌّ أوّلا ممّا أفادتني به من معلومات وأخبار، زوجُه الداعيةُ الصّالحة الفاضلة، سليلة العلم والعلماء، ابنة الشيخ محمّد سهيل الخطيب رحمه الله تعالى. ومستمدّ ثانيا من معرفتي الشخصية به، إذ كان أحد المشايخ والعلماء الذين تشرّفت بالتّتلمذ على يديهم والأخذ من معين علمهم، حيث كنت شديد الحرص، خلال فترة الشّباب، على حضور دروسه العلمية ومجالسه الرّوحية، التي كان يعقدها في الزّاوية العلوية وفي بيته بمدينة وهران، التي اختارها مَقرّا لإقامته بعد رجوعه من بلاد الشّام مهاجَر أجداده.

أولا: أسرته

ينتمي الشيخ عبد الرحمن بن يلّس إلى أسرة عريقة، متجدّرة في العلم والتصوف، والفضل والصّلاح، فجدُّه الشيخ محمد بن يلس كان من علماء مدينة تلمسان البارزينن وشيخا من شيوخ التصوّف المشهورين، ووالدُه الشيخ أحمد بن محمد بن يلّس كان أيضا من العلماء وشيوخ التصوف المرموقين في بلاد الشّام التي هاجر إليها والدُه.

1- جدّه:[1]

جدّه هو الشيخ العارف بالله محمد بن الحاج علاّل بن بلحسن بن الحاج علي بن محمّد بن يلّس شاوش.

وُلد سنة 1271هـ (1854م) بتلمسان وتربّى يتيما في كفالة عمّه محمّد بن يلّس فقام بتربيته وأغدق عليه بالنّعم.

درس القرآن الكريم والعلم الشرعي بمساجد مدينة تلمسان واتصّل بعلمائها وفقهائها وعلى رأسهم الشّيخ أحمد بن محمد الدّكالي (المتوفى في وطنه دكّالة بالمغرب الأقصى سنة 1333هـ الموافق لـ 1915م)، فأخذ عنه العلم النافع من عربية وفقه وتوحيد وتصوف. وكذلك العلاّمة الجليل سيّد فقهاء عصره الشيخ محمد بن أحمد الحرشاوي المدرّس في الجامع الكبير (المتوفى بتلمسان سنة 1313هـ - 1896م) والفقيه الناسك العابد الشيخ محمد بن الشيخ دحمان المدرّس في مسجد سيدي ابراهيم (المتوفى سنة 1313هـ-1896م بتلمسان دفين العبّاد)، وغيرهم من علماء تلمسان في ذلك الزّمان.

وقد سلك الشيخ محمد بن يلس الطّريق الصّوفي على يد شيخه العلاّمة الدّكالي ودلّه هذا الأخير على شيخه العارف بربّه الأستاذ الكبير الشيخ محمد العزاوي الحسني المشهور بالهبري صاحب زاوية تاغيت بجبل بني زناسن (1239-1317هـ=1823-1899م)[2]. فسافر إليه واجتمع به ولقّنه الذكر الخاص وأذن له بإرشاد الناس إلى ذكر ربهم والإجتماع عليه والقيام بدينه واتبّاع سنّة حبيبه ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهدى الله على يديه خلقا كثيرا، واشتهر أمرُه وشاع خبرُه بين الخاص والعام، وكان له الفضل في نشر الطّريقة الدرقاوية في تلمسان وضواحيها.

ثم بعد وفاة شيخه الهبري، انتقل إلى وهران ومكث بها ثلاث سنوات يعلّم ويربّي وينشر الطّريق، فكان من أشهر تلاميذه بها الشيخ الطّيب المهاجي والشيخ أبو عبد الله البوعبدلّي صاحب زاوية بطّيوة. ثم انتقل إلى المغرب الأقصى وبقي في بلاد الرّيف سنتين ثم عاد إلى تلمسان.

ثم اجتمع بالمربّي الكامل العارف بالله الشيخ سيدي حمّو بن الحبيب البوزيدي المستغانمي الحسني المتوفى سنة 1909م[3] (وهو أخو شيخه في الطريق الصوفي، فهو والشيخ الهبري، شيخهما واحد وهو سيدي محمّد بن قدّور الوكيلي المتوفى سنة 1869م[4]). فأذن الشيخ البوزيدي للشيخ محمّد بن يلّس بإرشاد المريدين وتربيتهم وذلك في سنة 1325هـ(1907م)، ففتح الله على يديه قلوبا مقفلة وعيونا عميا وآذانا صمّا وحصل لكُلٍّ من صَحِبَه الهداية والتوفيق.

وبعد وفاة الشيخ البوزيدي أراد كبار مريديه وأتباعه تعيينَه خليفة على الزاوية بمستغانم فاعتذر بعدم استطاعته ترك زاويته بتلمسان.

وفي سنة 1329هـ (1911م) شهدت الجزائر هجرات جماعية للعديد من الأسر والعائلات إلى المشرق، وذلك بسبب التضييق المتزايد للمستعمر الفرنسي على العلماء وعلى نشاطهم التعليمي، ومحاولته لفرض التجنيد الإجباري على أبناء الجزائريين في الجيش الفرنسي، الأمر الذي رفضه العلماء بشدّة وأفتوا بحرمته وعدم جوازه [5]، ممّا اضطرّ الشيخ محمد بن يلس إلى أن يهاجر ويفرّ بدينه إلى مدينة دمشق مهاجر الأمير عبد القادر من قبله، مصطحبا معه زوجه وابنه الشيخ أحمد الذي كان في سن الجندية، ورافقه بعض أحبابه وتلامذته ومريديه، وعلى رأسهم العلاّمة الشيخ محمد الهاشمي.[6]

وأثناء إقامته بها، زادت بفضله شهرة الطريقة الشّاذلية وأخذ عنه الطّريق كثير من أهل الشّام، وظهر على يديه الخير الكثير والنفع العميم، ومُنحت له زاوية بحيّ الشّاغور عُرفت بالزّاوية الصمادية.

وبعد سبعة عشر عاما من إقامته في هذه البلدة المباركة، توفي رحمه الله في يوم الإثنين 11 جمادي الثانية سنة 1346هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 1927م، بعد مرض أصابه ابتداء من سنة 1922م واشتدّ عليه في آخر أيّامه، وقد صُلّي عليه في الجامع الأموي وشَيّعَت جنازتَه آلافٌ مؤلّفة من الناس، وبكَته دمشق بأسرها.

2- والده:[7]

والدُه هو شيخ الطريقة الشّاذلية، العالم الرّباني أحمد بن محمد بن يلس شاوش، المولود في تلمسان سنة 1317هـ (1899م) ونشأ بها وتعلّم القرآن ومبادئ العلوم فيها.

ولما اشتدّت وطأة الفرنسيين على المشايخ والعلماء في الجزائر، هاجر إلى الشّام مع والده الشيخ محمد في سنة 1911م.

وفي دمشق تابع الشيخ أحمد تحصيله العلمي فدرس النحو والصّرف والأدب والعقائد وغيرها على الشيخ مصطفى المصري وكان حجّة في العربية وعلوم الآلة. ودرس أيضا على جِلّة علماء الشّام كالشيخ سعيد السّكري والشيخ أمين سويد، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني، وحضر دروس المحدّث الشيخ بدر الدين الحسني.

ولما مُنحت لوالده الشيخ محمد زاويةُ الصمادية، قام معه بتعميرها والقيام بشؤونها.

وفي أثناء الثورة السّورية عام 1925م، ألقت السّلطات الفرنسية القبض عليه وعلى والده، وعُذّب عذابا شديدا، وقد اتهمتهم السّلطة الفرنسية بالمشاركة في الثورة السّورية وأكّدت التهمة بمواقف والده السّابقة من التجنيد الإجباري في الجزائر ومن عدم تقيّده بقرارات الدولة الفرنسية في منعها التعليم في الزوايا، وخروجه من الجزائر خفية مع أهله بدون رخصة ولا جوازات سفر. ثمّ أُفرج عنهم بعد ذلك إثر توسّط بعض الشّخصيات المعروفة، كان على رأسها المحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني.

ولما توفي والده الشيخ محمد سنة 1927م، اتفق علماء الشّام وكبار أهل الطّريق على تولية ابنه العلاّمة الورع التقي النقي العابد النّاسك ذي الأخلاق الكاملة الشيخ أحمد بن يلس، فألبسوه برنس والده وبايعوه على اتباع كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمداومة على الذكر والمذاكرة، فقام بأمر الزاوية أحسن قيام.

وإلى جانب ذلك فقد قام بتأسيس مدرسة شرعية سمّاها : " مدرسة الإرشاد والتعليم " وبقي فيها حتى وفاته، وساعده في أعماله الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، وكان قد درس عليهما من قبل.

وفي سنة 1367هـ (1949م) قام بزيارة إلى المغرب ونزل بتلمسان موطن نشأته التي غادرها منذ قرابة الأربعين سنة، ففرح به جميع أهلها وخرجوا لملاقاته، فاجتمع بعلمائها وصلحائها ورجال الطرق كما أنّه اجتمع بأهله وأحبابه ممّن بقي منهم بتلمسان ولم يهاجر إلى الشّام.

ثم قصد بعد ذلك فاس، ونزل عند صديقه الشيخ المحدث عبد الحي الكتاني، كما أنّه قصد زاوية الشيخ الهبري واجتمع بشيخها المربي الكامل صاحب الأحوال الربانية العارف بالله الشيخ سيدي أحمد بن سيدي محمد الهبري المتوفى سنة 1951م[8] فجدّد معه عهد والده وأخذ عنه الإذن في الإرشاد والتعليم. ثم عاد إلى الشّام.

وقد ترك الشيخ أحمد مؤلّفات، طُبع بعضُها وهي على شكل كتب مبسّطة منها : "الحدائق الوردية في الدروس التوحيدية"، "المنتخب من كلام العرب" (صدر في أجزاء صغيرة)، "العقد الثمين في سيرة سيد المرسلين" (لتلاميذ المدارس الإبتدائية)، و"المجموعة السَّنية في أوراد السادة الشّاذلية الدرقاوية التلمسانية".

وقد كان الشيخ أحمد دائم الصلاة والعبادة، ملازما لأداء فريضة الحج، حجّ أكثر من عشرين مرّة، وكانت له مجالس ذكر دائمة في الزاوية الصمادية بدمشق يرشد فيها المريدين ويعمل للحاضرين والفقراء بها طعاما. وبقي على هذه الحال إلى أن توفي رحمه الله في 28 جمادي الأولى سنة 1379هـ (1959م) ودفن في مقبرة الباب الصغير، جانب والده.

ثانيا: ولادته ونشأته

وُلد الشيخ عبد الرحمن في سنة 1351هـ الموافق لأوّل فبراير سنة 1932م بدمشق في حي الدقّاقين، قرب الشّاغور.

أخذ العلم في المدرسة التي أسّسها والدُه الشيخ أحمد المسمّاة " مدرسة الإرشاد والتعليم " وكان من أبرز مشايخه بها، إضافة إلى والده، الشيخ هاشم الخطيب والشيخ علي الدقر، اللذين كان لهما مع المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني في سورية، أكبر الفضل في نهضة الإصلاح، التي عُرفت بنهضة المشايخ، وإشعال فتيل الثورة ضدّ الفرنسيين[9].

ودرس أيضا اللغة العربية وآدابها على بعض المشايخ منهم الشيخ علي شعيرية والشيخ أنور الحصني اللذان درس عليهما إعراب القرآن الكريم، وكذلك درس على العالم الشيخ رفيق السباعي الذي كان من تلاميذ محدّث الشّام الشيخ بدر الدين الحسني والملازمين له.

كما تابع دراسته في المدارس الرّسمية بدمشق ومنها حصّل على الشّهادة الثانوية (البكالوريا)، ثم انتسب إلى كلّية الشّريعة بالجامعة السورية.

أمّا في مجال التربية والسّلوك الصّوفي فقد أخذ الطّريقة الشّاذلية عن والده الشيخ أحمد بن يلس، ولكن الشيخ أحمد توفي فجأة، ولم يُجز ولدَه الشيخ عبد الرحمن، فاستدرك ذلك تلميذ جدّه الشيخ محمد عارف الشوا السمان، فأجازه إجازة كاملة مطلقة بالذكر والإرشاد والتسليك[10]. ثم جدّد العهد بعد ذلك على شيخ الطّريقة الشّاذلية في بلاد الشّام العارف بالله المعمّر الشيخ عبد الرحمن الشّاغوري رحمه الله المتوفى سنة 2004م[11]،(وقد دخل على يديه الخلوة).

وبعد وفاة والده سنة 1959م قُدّم لإلقاء الدّرس الذي كان يقدّمه والدُه في زاويته " الزاوية الصمادية"، فواصل الشيخ الدّرس في نفس الكتاب الذي كان يدرّسه والدُه، مبتدئا في المكان الذي توقّف عنده قبل وفاته، فعند ذلك أجمع أهل الزاوية على تنصيبه شيخا على الزاوية خليفة لوالده.

ومع ذلك فإن الشيخ لم يقطع التردد على مجالس أهل العلم أمثال مجالس الشيخ مكّي الكتاني، والشيخ حسن حبنكة والشيخ أبي اليسر عابدين والعارف بالله الشيخ أحمد الحارون الذي له منه إجازات شفهية[12].

ثالثا: زواجه

لما تولّى مشيخة الزاوية الصمادية في سنة 1959م، أصرّ كبار أهل الطّريق وأتباع الزّاوية على تزويجه، فكان أن تزوّج في سنة 1960م بفتاة من أشرف وأعرق العائلات الشّامية التي اشتهر أفرادُها بالعلم والفضل والصّلاح، وهي عائلة الخطيب.

فوالدُها هو العالم الرّباني الشيخ الصّوفي النقشبندي الطّريقة، الزاهد الورع محمد سهيل الخطيب الحسني المتوفى سنة 1402هـ(1981م)[13] الذي تتلمذ على كبار شيوخ عصره كأمثال المحدّث الشيخ بدر الدين الحسني الذي كتب عنه أمالي كثيرة[14]، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني والمحدث الشيخ عبد الحي الكتاني، والشيخ هاشم الخطيب والمقرئَيْن الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت وابنه الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، وغيرهم كثير.

وقد كان الشيخ محمد سهيل الخطيب أعجوبة من الأعاجيب في اهتمامه وحرصه على تطبيق السنة النبوية ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما ثبت عنه، كثير الرؤية له صلى الله عليه وسلم في المنام.

أخبرني الشيخ الدكتور عبد العزيز الخطيب أنّ والدَه الشيخ محمد سهيل احتار في الكيفية التي كان يلفّ بها النبي صلى الله عليه وسلم عمامته وظلّ أيّاما مهتمّا لذلك حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم فبيّن له الكيفية، فأصبح يلفّ عمامته كما بيّنها له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن شدّة حرصه على تطبيق كل ما ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم فَعَلَه — حتى وإن كان من الأمور الجبلّية — أنّه كان مرّة يدرّس طلبته في المسجد، فذكر لهم أنّ النبي صلى الله عليه وسل حدث له أن مشى حافيا في الطّريق وكان يأمر الصحابة بالتحفي في بعض الأحيان[15]. فعندها طلب من تلامذته الخروج من المسجد والمشي في الشّارع دون نعال حتى يحصل لهم شرف تطبيق هذه السنة. فخرج وخرجوا معه فمشوا حفاة ثم عادوا إلى درسهم في المسجد.

من أجل ذلك فإن الشّيخ عبد الرحمن بن يلّس قد تأثّر بصهره الشيخ محمد سهيل، أيّما تأثّر، فكان يجلّه كثيرا ويرجع إليه في كلّ ما يهمّه من أمور ويستشكله من عويصات المسائل العلمية ودقائق الأسرار الذوقية.

وقد حزن لوفاته ورَثَاه، فكان ممّا قاله في رثائه: "الشيخ سهيل الخطيب وليّ الله، الذي كان لي أباً بعد أبي، وشيخا مباركا استمدتُ منه أنوارا كثيرة، ووليا صالحا كنتُ ألوذ به، تعلّمنا من هذا الرجل آدابا ما كنّا نقرؤها إلاّ في الكتب"[16].

<u>رابعا:</u> وظائفه وهجرته إلى الجزائر

في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي توظّف في المجلس النيابي السّوري وبقي فيه عشر سنوات تقريبا، كما أنّه استلم التدريس الديني فكان مديرا ومدرّسا في مدرسة والده "الإرشاد والتعليم"، وكان يقوم أيضا بالخطابة يوم الجمعة في مسجد يَلْبُغَا بالمرجة بدمشق، ثم الزاوية الصمادية بالشاغور. وقد كان خطيبا مفوّهاً، يأخذ بالألباب والقلوب إذا تحدّث ويأسر مستمعه لفصاحته وقوّة بيانه.

وفي سنة 1967م خلال انعقاد مؤتمر جَمَع زعماء الدول العربية، انتقد رؤساء هذه الدول في خطبة جمعة ألقاها من على منبر مسجد يَلْبُغَا بدمشق، فحثّهم على العمل لإعلاء كلمة الله ونصرة شرعه وتوحيد كلمة المسلمين وعدم التفرّق..، فسبّبت له هذه الخطبة مشاكل مع النظام آنذاك، خاصّة أنّه كان موظفا في المجلس النيابي.

وممّا زاد الطّين بلّة والأمور تعقيدا، أنّه أصرّ على الذهاب إلى الحج خلال هذه السنة، حيث كان من عادته رحمه الله منذ بداية السّتّينات الذهاب إلى الحج في كل موسم، وذلك على الرغم من عدم حصوله على الموافقة من مسؤوليه.

وفور رجوعه من الحج ضُيّق عليه واتُّهم بالتّآمر على النظام وهُدّد بالإعتقال، فاضطرّ إلى مغادرة دمشق، وقام بعض أحبابه بتهريبه عن طريق العاصمة الأردنية عمّان ومنها أخذ الطّائرة في اتجّاه باريس، ثم دخل إلى الجزائر.

ولدى تواجده بعمّان عُرض عليه أن يتوظّف بها فاعتذر وقال: إذا كان ولابدّ من مغادرة الشّام فلن أستقرّ إلاّ في بلد أجدادي الأصلي الجزائر.

وفي الجزائر استوطن مدينة وهران واستقرّ بها وتوظّف كأستاذ بإحدى ثانوياتها (ثانوية ابن باديس) مدرّسا لعلوم اللغة العربية وآدابها، وذلك إلى غاية سنة 1976م. ثم عُيّن أستاذا بالجامعة في معهد علم النفس حيث أسند إليه تدريس الفلسفة والفكر الديني، واستمرّ على ذلك إلى غاية سنة 1979م حيث أُصيب بمرض اضطُرّ بسببه الإنقطاع عن التدريس بالجامعة ونُقل إلى العاصمة الفرنسية باريس للمعالجة فقاموا ببتر إحدى رجليه.

وخلال تواجده بفرنسا تعرّف على الدكتورة " إيفا دي فتري" وكانت أستاذة الفلسفة بجامعة السربون ومتخصّصة في دراسة التصوف الإسلامي، أسلمت منذ مدّة وكانت متأثّرة بحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي [17]، فاتّفق معها على تقديم أطروحة علمية عن "تصوف أبي مدين" دفين تلمسان الذي كان الشّيخ متأثّرا به جدّا. كما تعرّف على المستشرق جاك بارك، رئيس قسم الفلسفة آنذاك الذي شجّعه على عمله، ولكن الأجل حال دون إتمام العمل.[18]

<u>خامسا: اشتغاله بالدعوة إلى الله وإرشاد الناس</u>

وبالموازاة مع عمله التدريسي في الثانوية ثم في الجامعة، فإنّ الشّيخ، ومنذ أن حلّ مدينة وهران واستقرّ بها، واصل نشاطه الدعوي والإرشادي والتعليمي فكان يقوم به في الزاوية العلوية وفي مختلف الأماكن التي يتاح له فيها ذلك، فاستفاد من دروسه وتوجيهاته ومواعظه العديد من أبناء مدينة وهران وخاصّة الذين كانوا يتردّدون على الزاوية العلوية، أو على بيته الذي كان مفتوحا لطلبة العلم والزّائرين والذّاكرين طيلة أيّام الأسبوع.

والجدير بالذكر أن الفترة التي قَدِم فيها الشيخ إلى الجزائر، وهي فترة الستّينات بعد الإستقلال، شهدت عُزوف بعض طبقات المجتمع وخاصّة النخب المثقّفة منه، عن تعاليم الدين والإنسلاخ من أحكامه، والتأثّر بالثقافات الوافدة من الغرب، وظهور الكثير من الأفكار الإلحادية نتيجة بروز بعض التيارات اليسارية والشيوعية، فبات ذلك يهدّد فكر الشّباب وعقيدتهم وأخلاقهم.

فكان الشيخ رحمه الله يبذل قُصارى جهده للدّفاع عن تعاليم الدين، عقيدة وشريعة، بأسلوب منطقي وعلمي مدجّج بالأدلة والبراهين العقلية الدالة على مصداقيته، لإقناع هؤلاء الشّاردين عن الجادّة.

وقد اهتدى على يديه كثير من هؤلاء الشّاردين وعادوا إلى حمى الدّين ورحابه. وقد ذكر لي ابنُه المسمّى "نور محمد" حفظه الله، أنّه التقى مرّة بامرأة، فلمّا علمت أنّه ابن الشيخ عبد الرحمن بن يلّس، قالت له: إنّ والدك رحمه الله هو الذي كان السّبب في انقاذي من الإلحاد...

- أهم ما كان يدعو إليه ويركّز عليه خلال دروسه:

لقد أكرمني الله خلال مرحلة الشّباب، في الفترة الممتدة ما بين سنة 1980م إلى وفاة الشيخ سنة 1983م، بملازمة دروسه التي كان يلقيها في الزاوية العلوية وفي بيته. وكان من أهمّ ما استفدتُه منه خلال هذه الدروس ورأيتُه يركّز عليه، وبقي منذ ذلك العهد، وإلى غاية كتابة هذه السّطور في ترجمته، عالقا بذهني وراسخا في ذاكرتي، ما يلي:

1- دعوتُه إلى الإهتمام بالعلم:

كان رحمه الله من خلال معاينته عن قرب لأحوال بعض المنتسبين إلى الطرق الصوفية، يلاحظ أنّ الكثير منهم لم يكن له كبير اهتمام بطلب العلم الشرعي، فكان يحاول تصحيح هذا الوضع ويدعو إلى ضرورة الإهتمام بالعلم أوّلاً. لأنّ الله تعالى لا يُعبد إلاّ بالعلم، فهو القائل :

[**فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك**](سورة محمد: 19)، فبدأ الله بالعلم أوّلا ثم بالإستغفار ثانيا.

وكان يقول بأنّه لن تكون للتصوف نهضة إلاّ بالتّأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، والتّأسي به لا يكون إلاّ بالعلم بسيرته، بأحاديثه، بالقرآن الذي أنزل عليه، وشعاره صلى الله عليه وسلم "ربّ زدني علما".

وكان يرى أنّ من أهم الأسباب التي أدّت إلى عدم الإقبال على التصوف – في أيّامه– هو إهمال بعض الدّعاة إليه للجانب العلمي، ولا يمكن الإقبال على التصوف إلاّ إذا كان دعاتُه قدوة في السّلوك: أي التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أجل ذلك كان للشّيخ اهتمام بعقد الحلق العلمية وقراءة الكتب فيها، فكانت له حلقة في قراءة صحيح الإمام البخاري وحلقة في قراءة كتاب في التفسير.

2– تأكيدُه على ضرورة الإلتزام بظاهر الشّرع وآدابه:

كان رحمه الله من خلال دروسه يُحاول إبطال بعض ما كان سائداً من أفكار وسلوكات باطلة أُلصقت بالتصوف ظلما وزورا، والتصوف منها بريء.

فمن ذلك ما كان سائدا عند بعض المنتسبين، من عدم الإلتزام ببعض أحكام وآداب الشّرع الظّاهرة، والتّهاون في تطبيقها، معتقدين أنّ الإعتناء بالقلب وتزكية النفس بالأوراد والأذكار كافٍ لأن يرقى المريد إلى مرضاة الله.

فكان رحمه الله يؤكّد على ضرورة الإلتزام بأحكام الشّريعة وآدابها، وأنّ السّالك إلى الله لن يصل إليه إلاّ إذا أصلح الظّاهر والباطن معا، وكان يكرّر ما كان يقوله علماء التصوف قديما بأنّ الإستقامة هي عين الكرامة. وكثيرا ما كان يستشهد أثناء دروسه بهذه القصّة الواردة عن أبي يزيد البسطامي (188–261هـ)[19] الذي قصد زيارة بعض من وُصف بالولاية، فلمّا وافى مسجده قعد ينتظر خروجه، فخرج الرّجل وتنخّم في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه. وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشّريعة، فكيف يكون أمينا على أسرار الحق التي وهبها لأوليائه؟[20].

3– دعوتُه إلى الإهتمام بالتصوف الأخلاقي دون التصوف الفلسفي:

من المعروف عند الباحثين في التراث الصّوفي أن التصوف له اتّجاهان بارزان عُرف بهما خلال تاريخه، هما التصوّف الأخلاقي ويُطلق عليه أيضا التصوف السني، والتصوّف الفلسفي.[21]

أمّا الإتّجاه الأوّل فهو الذي كان سائدا في القرون الأولى وهو التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى الزهد والتقشف وتربية النفس وإصلاحها، ويعتبر الإمام الغزالي أكبر مدافع في الإسلام عن هذا اللون من التصوف، وهو اللون الذي نصره، من قبل الغزالي، أمثال أبو القاسم القشيري صاحب الرّسالة المشهورة في التصوف، وأبو طيب المكي صاحب قوت القلوب، والهروي وغيرهم..

أمّا التصوف الفلسفي فهو التصوف الذي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنه مصطلحاً فلسفياً استمدّوه من مصادر متعددة. وقد ظهر هذا اللون من التصوف بوضوح منذ القرنين السادس والسّابع الهجريين، وممّن مثّل هذا الإتّجاه الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي والسهروردي المقتول وغيرهم.

ولخطورة الخوض في التصوف الفلسفي، خاصّة لمن لا يعلم مصطلحات أهله، ولكونه يعبّر عن أذواق ومواجيد أصحابه، نتيجة المجاهدات والرّياضات والذكر مع الفكر. ممّا يجعل من لم يذق ما ذاقوه، يفهم كلامهم على غير مرادهم، وقد يفهمه بفهم يتعارض مع العقيدة، فإنّ الشيخ عبد الرحمن بن يلّس كان ينبّه دائما المريدين على الإهتمام بالتصوف الأخلاقي الذي ينتفعون به في تهذيب نفوسهم وأخلاقهم، وعدم اللّجوء إلى قراءة كتب أصحاب التصوف الفلسفي لعدم الأمن من العواقب.

وأذكر مرّة، أنّ أحدا زاره في بيته وسأله عن مسألة قرأها في كتاب الفتوحات المكيّة للشيخ محيي الدين بن عربي لم يفهم معناها. فقال له الشيخ مستنكراً :" أوتقرأ كتاب الفتوحات؟"، ثم قال للسّائل: " أمّا أنا فلا أفهم ما في الفتوحات، وقد اشتريت الكتاب ووضعته في مكتبتي متبرّكا به ولا أقرأ فيه".

والذي أعتقده بيقين، أنّ الشيخ –وهو الرّاسخ القدم في التصوف– كان يفهم ما في الفتوحات، ولكن ذكر ذلك زجرا لذلك السّائل المتطاول، وتنبيها لغيره ممّن كان حاضرا. حتى يهتمّ الإنسان بإصلاح نفسه وتهذيبها، فإذا فتح الله عليه بالأسرار فهم كلام القوم.

سادسا: مميّزات شخصيته وأخلاقه

كان الشيخ رحمه الله من جهة أوصافه الخَلقِية جميل المحيّا أنيقا، بهيّ الطّلعة، طويل القامة، حسن الهندام، يضع عمامة بيضاء على رأسه ويرخي عذبتها بين كتفيه، من رآه هابه ووقّره، وذكّرته بالله رؤيتُه. فهو بحقّ كان ممّن يُنهض من يصحبه بحاله ويدلّه على الله بمقاله.

أمّا من جهة أوصافه الخُلُقية، فقد كان الشيخ كامل الأخلاق حسن السّلوك، ولا يمكن

تعداد كلّ ما اتّصف به من أخلاق في هذه الصفحات المختصرة، ولذلك فسأقتصر على ذكر أهمّ ما ميّزه من خلال ما عرفتهُ عنه.

1– صدعه بالحق وعدم خشيته إلاّ من الله:

كان رحمه الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وكان في دروسه ومواقفه يقول دائما كلمة الحق مُدافعا عن الإسلام وأهله وتعاليمه ولا يخشى في الله لومة لائم، وإن كان ذلك يسبّب له الكثير من المتاعب، وقدوته في ذلك هو الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلّم. فقد كان رحمه الله يبلّغ رسالة الله ولا يخشى أحدا، كما قال الله جلا وعلا: [**الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلاّ الله**](سورة الأحزاب: 39)، وهذه الصفة لا تتأتّى إلاّ لمن غرف من مناهل أهل الصدق والإخلاص فأصبح بكلّيته لله سبحانه، فهو يخشاه ولا يخشى غيره.

وإنّ صدعَه بالحقّ هو الذي سبّب له –كما ذكرنا سابقا– الخروج الإضطراري من بلاد الشّام، وهي البلد التي وُلد فيها ونشأ وتعلّم بها، ودُفن والدُه وجدّه فيها.

كما أنّه تعرّض للمضايقة والمساءلة من قِبَل المسؤولين الجزائريين بسبب انتقاده للتوجّهات اليسارية والإشتراكية التي كانت سائدة لدى الحكام في السّبعينيات من القرن الماضي.

2– إخاؤه ومحبّته:

إنّ من أعلى ما تجسّد في الشيخ عبد الرحمن خلق الإخاء والمحبّه، فهو صافي المودة، ثرّ العطاء حيثما توجّه نشر من عبير روحه الحبّ، فلا يكاد يجتمع مع أخ حتى يشعل في قلبه نور الإخاء في الله حارّا متوقّدا منيرا لأنّه هو كذلك، فتراه يغرف منه الصغير ويرتشف منه الكبير، وهو بطبيعته شفّاف النّفس حسّاس الوجدان مع تأمّل عميق، وفراسة صادقة، وفطرة صافية، وقدرة كبيرة على أن يحيط الكبار والصّغار بعطفه، وأن يتجاوز عن الأخطاء، ويغض الطّرف عن الزلاّت، ممّا جعل الكثيرين من الشّباب يتعلّقون به بمجرّد أن يعرفوه، لأنّهم كانوا يجدون عنده حبّا بلا مصلحة، وأبوّة بلا مطالب شخصية، وأخوّة تتقارب في أجوائها فوارق السنّ والقدر بسبب من تواضع لا يعرف إلاّ حدود الشّريعة.

وخلال تتلمذي عليه أثناء مرحلة الشّباب، كنتُ أكثر من التردّد على بيته بصحبة بعض طلبة العلم، فكان يفرح بقدومنا ويستقبلنا بحفاوة وبشاشة، ويبالغ في إكرامنا والتودّد إلينا ومباسطتنا، فكنّا نتعلّم منه العلم ومعه الأخلاق والأدب وحسن المعاشرة.

3- صبره على المحن والشّدائد:

شاءت حكمة الله أن تكون هذه الدّنيا هي دار محن وابتلاء، وكما قال ابن عطاء الله السّكندري في حكمه: "لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدّار فإنّها لم تُبرِز إلاّ ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها".

والشيخ عبد الرحمن بن يلّس رحمه الله عاش حياةً مليئة بالمحن والمصائب، مَثَله في ذلك كمَثَل من سبقه من علماء هذه الأمّة وصالحيها، وقدوتُهم في ذلك أيضا سيّد هذه الأمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: "**أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**"[22]. فالمحن والمصائب هي سنّة الله في عباده ليميز الخبيث من الطّيب والصادق من الكاذب، ولو تُرك النّاس لدعوى الإسلام ومحبّة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوى الصّادق والكاذب. وصدق الله القائل في محكم كتابه: **[ألم أَحَسِب الناسُ أن يُترَكوا أن يقولوا ءامنّا وهم لا يُفتَنون، ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ اللهُ الذين صدقوا ولَيَعلمنّ الكاذبين]**(سورة العنكبوت:1-3)، والقائل: **[أمْ حسِبتُم أن تدخلوا الجنّةَ ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين]**(سورة آل عمران:142).

عاش الشيخ عبد الرحمن هذه الحياة وأُصيب فيها بأنواع وألوان من المحن والإبتلاءات، فذاق محنة التغرّب عن الأوطان، وابتُلي بمختلف الأوجاع والأسقام، وكان أشدَّها وطأة عليه، المرضُ الذي أفقده إحدى رجليه، كما أنّه تجرّع مرارة الفاقة والإحتياج في بعض الفترات.

ومع ذلك فإنّه كان يقابل ذلك كلّه بصبر جميل وصدر رحب، لا يشتكي ولا يتضجّر - رغم مرضه الثقيل-، بل تمتلىء نفسُه بالأمل والتوكّل على الله في كل أحواله محتسبا ما أصابه لله سبحانه.

ومن الأمور التي كانت تؤثّر عليه ويتألّم منها كثيرا، وكان يعتبرها من أشدّ أنواع الإبتلاءات، بعدُه عن أحبابه وإخوانه الصّالحين الذّاكرين لله سبحانه، الذين كانت تجمعه بهم مجالس الذكر والمذاكرة والإجتماع على طاعة الله، أولئك الذين كثيرا ما كان يستشهد في وصفهم بما قاله سيدي أبو مدين الغوث:

ما لذّة العيش إلاّ صحبة الفقرا هم السّلاطين والسّادات والأمرا [23]

ولذلك فإنّه لما كان بفرنسا وبقي فيها مدّة من الزّمن للعلاج، تأثّر لبُعده عن هؤلاء الإخوان، وأهمّه الأمر حتى خشي أن يكون ذلك عبارة عن عقوبة عُوقب بها بسبب ذنب اقترفه وهو لا يشعر، لقول الله جلّ وعلا: **[وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير]**(سورة الشورى:30).وقد كتب لابنته الكبرى من فرنسا رسالة يبثّ لها فيها ما كان يعانيه من غربة في وسط أناس لا يعرفون الله ولاذكره، مبديا لها خشيته من أن يكون ما يعانيه هو عقوبة من جنس العقوبة التي أراد سليمان عليه السّلام أن يُسلّطها على الهدهد حينما غادر مقرّه دون استئذانه، حينما قال: **[ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأُعذّبنّه عذابا شديدا أو لا أذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين]**(سورة النمل:20-21)، حيث ذكر المفسّرون أن من جملة العقوبات التي أراد سليمان تسليطها على الهدهد هو حبسُه مع غير جنسه من الطّيور، وكما قال بعضهم: " أضيق السجون معاشرة الأضداد "[24].

ولما عاد الشّيخ إلى بيته ووطنه والتقى بأحبابه وإخوانه، غَمَره الفرح والبهجة والسّرور، ولا زِلْتُ أذكر، لما ألقى أوّل درس في الزاوية بعد رجوعه من فرنسا، أنّ أوّل كلام قاله مخاطبا به الحضور، هذه الأبيات من قصيدة لسيدي أبي مدين:

تضيق بنا الدّنيا إذا غبتمو عنّا وتزهق بالأشواق أرواحُ،نا منّا

بُعادكُمو موتٌ وقُربكمُو حياة وإن غِبتمو عنّا ولـو نَفَساً متنا

نموت إذا غبتم ونحيا بقربكم وإن جاءنا عنكم بشير اللّقا عشنا (25)

4- كرمه:

من الخصال التي تميّز بها الشيخ، شدّة الكرم، فقد كان رحمه الله كريما سخيّا يبذل عطاء من لا يخشى الفقر، فقد كان بيتُه مفتوحا للزّائرين طيلة أيّام الأسبوع، ولا يخرج الواحد منهم إلاّ إذا تناول شيئا من الطعام والشّراب، وكان كثيرا ما يردّد هذه العبارة المأثورة عن أهل التصوف، يربّي ويُنبّه بها الحاضرين: "من أقبح كل قبيح صوفي شحيح".

كما أنّه كان يتكرّم على أحبابه بما يأتيه من الهدايا، وقد أخبرني غير واحد ممّن كانت له صلة بالشيخ، أنّه أعطاه مالاً كثيرا عندما أهدى له أحد الزّائرين الأغنياء بعض المال.

وأخبرني أخٌ في الله ممّن صَحب الشيخ ولازمه، أنّ في مرّة كان ولد الشيخ الأصغر (واسمُه اللّيث ولم يكن يتجاوز سنّه آنذاك ستّ سنوات) يقوم بحركات الصّلاة وهو يلعب، فلمّا سجد التفت إلى والده قائلا: بابا هل تريد أن أطلب من الله أن يبعث لك شيئاً؟ فقال الشيخ يمازح ولدَه: أطلب منه أن يبعث لنا مبلغ كذا .. (وحدّذ الشيخُ مبلغا ماليا معيّنا). ثم لم تمرّ سوى لحظات حتى طرق البابَ زائرٌ يطلب ملاقاة الشيخ، وبعد انتهاء الزّيارة أهدى له مبلغا ماليا وانصرف، فلمّا عدّ الشيخُ المبلغ، وجده نفس ما ذكره لولده دون زيادة ولا نقصان. فقال عندها ممازحا: يا ليتنا طلبنا أكثر من أجل أن ننتفع وننفع به أكثر...

سابعا: وفاته

كان من عادة الشيخ أن يزور دمشق في كلّ سنة، وينزل في دار صهره والد زوجته الشيخ محمّد سهيل الخطيب، وفي إحدى هذه الزّورات في سنة 1983م، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه يثني عليه، ويقول له: " أنت منّا ".

وحدّثتني زوجة الشيخ عبد الرحمن، بنت الشيخ محمد سهيل حفظها الله، أنّهم عندما كانوا في الجزائر العاصمة، في بيت بعض أحبابهم يستعدّون لسفرهم إلى الشّام، وكانت معهم والدتُها، كان الشيخ ممتدّا على فراش يستمع إلى زوجه تتلو عليه القرآن، فسَمِعَته فجأة يقول، وهو في حال بين اليقظة والمنام: "وعليكم السّلام ورحمة الله". ثم التفتَ إلى والدة زوجته وقال: "لقد رأيتُ الآن الشّيخ سهيل وقال لي لقد كنّسنا (هيّأنا وأصلحنا) لك الطّريق، فتفضّل.."

فظنوا أنّه هيّأ له الطّريق للذهاب إلى الشّام، ولكن في الحقيقة إنّما كان الطّريق يُهيَّأ له للذّهاب إلى الشيخ محمد سهيل والإلتحاق به في عالم البرزخ.

ولما كان في دمشق، وقبل يومين عن موعد سفره للعودة إلى الجزائر، صعد مع أحد أحبابه إلى جبل قاسيون المطلّ على دمشق، فقال له وهو ينظر إلى هذا البلد الحبيب إلى قلبه: "قُل آمين." فقال صديقُه: آمين. فقال الشيخ:" أسأل الله أن يجعل وفاتي في الشّام وأُدفَن على قبر جدّي بجوار سيدنا بلال."

وقد كانت هذه هي أمنية الشيخ رحمه الله دائما، وقد استجاب الله لهذه الأمنية، حيث وقبل موعد السفر والرجوع إلى الجزائر بيوم، وذلك يوم الإثنين 11 شعبان من سنة 1403هـ الموافق لـ 23 ماي 1983م، اشتدّ المرض على الشيخ، وذكر لزوجته أنّه رأى في هذا اليوم الشيخ محمد سهيل وهو يطوف معه بالكعبة.

ثم قبل العصر، وهو يعاني من شدّة الألم، طلب أن يُتلى عليه شيء من القرآن الكريم فكان صهرُه الشيخ عبد العزيز يقرأ عليه سورة يس، ثم توضّأ بمساعدة زوجه وأخيها الشيخ عبد العزيز وجهّز نفسه لأداء صلاة العصر، ومع بدء الأذان وعند قول المؤذّن " أشهد أن محمّدا رسول الله"، نطق بالشّهادتين وفاضت روحه إلى بارئها.

فشُيّعت جنازتُه، وألقى صهرُه كلمة التأبين في مسجد السنانية، وصلى عليه مفتي الجمهورية السورية –صديقه– الشيخ أحمد كفتارو –رحمه الله–، وخرج في جنازته خلقٌ كثير على رأسهم علماء دمشق وأعيانها من أمثال وزير الأوقاف آنذاك الدكتور محمد محمد الخطيب، والشيخ عبد الرزاق الحلبي وغيرهم كثير..، ودُفن بمقبرة الباب الصّغير كما كان يتمنّى، في قبر جدّه على مقربة من قبر سيّدنا بلال رضي الله عنه.

وقد ترك رحمه الله من الأبناء ثلاثة ذكور وبنتين، وتوفيت له بنت صغيرة كانت لا تزال في المهد.

فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جنانه، وجزاه الله عمّا قدّم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الهوامش

(1) يُراجع في ترجمته ما كتبه نجلُه الحاج مصطفى بن يلّس في تقديمه لديوان والده، وكتاب "السلسلة الذّهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية" للحاج مصطفى العشعاشي ص37–47، وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبو القاسم سعد الله 527/5 دار الغرب الإسلامي بيروت ط1 سنة 1998، ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض ص356 مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ط 3 سنة 1403هـ– 1983م.

(2) تراجع ترجمته في السلسلة الذهبية ص 18

(3) تُراجع ترجمنه في المرجع السابق ص 95

(4) المرجع السابق ص 15

(5) يُراجع حول موقف علماء الجزائر من التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي والهجرات الجماعية إلى بلاد الشام: الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور أبو القاسم سعد الله 129/2، الشركة الوطنية الجزائرية ط 3 سنة 1983، وتاريخ الجزائر الثقافي 505/5، والجزائر والأصالة الثورية لصالح خرفي ص151.

(6) تُراجع ترجمتُه في كتاب "حقائق عن التصوف" لتلميذه الشيخ عبد القادر عيسى ص 499 دار العرفان، حلب ط 12 سنة 1421هـ-2001م. والسلسلة الذّهبية 2001م.

(7) يُنظر في ترجمته: تاريخ علماء دمشق في القرن الرّابع عشر الهجري لمحمد الحافظ ونزار أباظة 718/2، ط 1 دار الفكر دمشق 1406هـ، السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية ص 68.

(8) له ترجمة في السلسلة الذهبية ص 50.

(9) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ص 387، دار المنارة جدّة ط 8، 1411هـ-1990م، ذكريات علي الطنطاوي 219/1، دار المنارة جدّة ط 3، 1422هـ-2001م.

(10) غرر الشآم في تراجم علماء الشام من آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم، الدكتور عبد العزيز محمد سهيل الخطيب الحسني 809/2، دار حسان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ط1، 1417هـ-1996م.

(11) له ديوان مطبوع بعنوان " الحدائق الندية في النسمات الروحية "، وقد ترجم لحياته في مقدمة هذا الديوان أحدُ خلفائه، شيخُنا العلاّمة محمد بن ابراهيم اليعقوبي الحسني، تحت عنوان " قبسات من حياة الشيخ". يُراجع الديوان ص5، دار الفجر دمشق ط 2، سنة 1998.

(12) غرر الشآم في تراجم علماء الشام 810/2

(13) له ترجمة في: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 981/2، وإتمام الأعلام للمؤلّفين د. نزار أباظة ومحمد رياض المالح، ص 367، دار صادر بيروت ط 2، 1424هـ-2003م.

(14) هي الآن قيد التحقيق على يد أحد أقرباء الشيخ سهيل الخطيب، وهو الدكتور عجاج الخطيب المتخصّص في علوم الحديث، صاحب التآليف الكثيرة التي أشهرها كتابُه الهام " السنة قبل التدوين".

(15) " عن عبد الله بن بُريدة، أنّ رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رحل إلى فضالة بن عُبيد وهو بمصر، فقَدِم عليه، فقال: أما أني لم آتك زائرا، ولكني سمعتُ أنا وأنت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم رجوتُ أن يكون عندك منه علم، قال: ما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فمالي أراك شَعِثاً وأنت أمير الأرض؟ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهانا عن كثير الأَرْفَهِ. قال: لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نَحْتَفِيَ أحيانا."

أخرجه أبو داود في أول كتاب الترجّل برقم 4157، وأحمد في المسند 22/6.

قال الشيخ محمد عوّامة محقّق سنن أبي داود: " الأرفه " هو كثرة التدهن، وقيل: الترجل كل يوم" (سنن أبي داود 444/4، دار القبلة جدّة، ط 1، 1419هـ-1998م.

(16) غرر الشآم في تراجم علماء الشام 811/2.

(17) كُتب عنها مقال في مجلّة "سيدتي" العدد 109، السنة الثالثة 17 نيسان 1983م.

(18) يُراجع: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 986/2

(19) من كبار الصوفية العارفين الزّهاد، من أقواله: "إذا نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتّى يرتفع في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الشّريعة". تُراجع ترجمته في: الرسالة القشيرية ص 13، طبعة دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ.

وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي 143/2، دار الكتب العلمية ط 1، 1399هـ-1979م. والأعلام للزركلي 235/3، دار العلم للملايين ط 5، 1980م.

(20) الرسالة القشيرية في التصوف، ص 14.

(21) للتوسع في هذه المسألة يُمكن الرجوع إلى ماكتبه ابن خلدون تحت عنوان:"الكلام فيما نقل المتأخرون اسم التصوف إليه والردّ عليهم في ذلك" في كتابه "شفاء السائل وتهذيب المسائل" ص 100، بتحقيق د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق ط 1، 1417هـ-1996م. وماكتبه أيضا في المقدّمة ابتداء من ص 520، دار الجيل بيروت بدون تاريخ. وكتاب "مدخل إلى التصوف الإسلامي" د. أبو الوفا التفتازاني ص 116، 173، و225، دار الثقافة القاهرة، ط 2 سنة 1976م.

(22) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء (فتح الباري 91/10)، والترمذي في كتاب الزهد، باب في الصبر على البلاء، رقم 2509 (تحفة الأحوذي 78/7)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم 4023 (السنن 1334/2)، والدارمي في كتاب الرّقائق، باب في أشد الناس بلاء (السنن 320/2)، وأحمد في مسنده (174/1،173).

(23) ديوان العارف بالله شعيب أبي مدين، جمع وترتيب الشيخ العربي الشوار التلمساني، ص 58، مطبعة الترقي دمشق، 1357هـ-1938م.

(24) يُنظر تفسير لطائف الإشارات للقشيري 37/5 بتحقيق سعيد قطيفة، المكتبة التوفيقية القاهرة، بدون تاريخ. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 180/13 دار إحياء التراث العربي-بيروت، بدون تاريخ.

(25) ديوان أبي مدين، ص 59.